ازمة القيم في المجتمع العربي

بقلم عبد الجليل حسن

ليس هذا نقداً لقيمنا وحياتنا ، فقد اكثر الكاتبون من النقد، ولكن النقد في حد ذاته ليس الا عرضاً من اعراض الازمة،ودليلاً على وجودها. وانما هدفنا ان نعرض للأزمة الراهنة – ازمة القيم في المجتمع العربي – محاولين ان نشخصها ونتعرف على اعراضها ، حتى يمكننا ان نقدم صورة متسقة لها تنتظم مختلف جوانبها ، فالقصد ان نتبين مسارات الازمة العربية ونتعرف على البواعث والاسباب التي خلقت تلك الازمة ، دون ان نشير الى القيم الصحيحة السليمة التي نحتاج اليها حتى نتحرر من ازمتنا لان هذه المرحلة ، مرحلة العلاج والبناء ، لا بد ان تسبقها مرحلة التشخيص والتصوير . واعتقد اننا إن استطعنا ان نصور ونشخص واقعنا ، فقد كسبنا كثيراً،لأن التعرف على الخط الاساسي لتطور الازمة وسيرها في بلادنا ، يعيننا على إظهار الترابط بين المشاكل ، ويحذرنا من معالجة قضايانا العربية أجزاء وتفاريق مستقل بعضها عن بعض ، فنعالج الرشوة والمحسوبية بالقانون وحده،ولا نعرف ان كانت نتيجة للروح الفردية ، او نعالج الفساد من ناحية الحكم بمجرد سن تشريعات نيابية راقية مثلاً .

بذلك يمكن ان تقوم الناحية البنائية في مجتمعنا على نظرة تحليلية أولاً حتى نستطيع ان نقدم لمجتمعنا ثانياً ما يحتاج اليه فعلاً ، فيقبله ويعتنقه لانه محتاج اليه ، ولا تقوم على ما يتراءى لنا من حلول تقترح نتيجة لاحساسنا غير الواعي بأوضاعنا القائمة ، فلا يستجيب لها المجتمع، لانها ليست حلولاً حقيقية لمشاكله ، فنحن إذ نقوم بذلك التصوير والتشخيص إنما نعمل من أجل ان تكون نواحي العلاج عندنا متكاملة ومرتكزة على أصل من التحليل والتشخيص بحيث نواجه واقعنا متكاملين بخطة منظمة شاملة هادفة ، فلا نصلح طفح الداء ونطمئن الى الشفاء .

***

نتساءل اولاً:ما هي القيم؟ان القيم جزء من هذا العالم الذي نعيشه ونتحرك فيه وليست ماهيات أو حقائق أزلية ابدية، وليست تأليفات منطقية او اشياء هي موضوع للتأمل،بل هي جزء من حياتنا الواقعية وسلوكنا اليومي ، هي كل ما نحس انها بحاجة اليه لكي نصل الى ما نبغي من رفاهية واهداف نعدها سامية ، وهي وليدة الشعور المتأصل فينا بأنه يمكن جعل الحياة أحسن مما هي دائماً ، واننا يمكن ان نعيش اغنى وأكمل باستمرار مما نحن عليه، وهي وليدة اتجاهنا بعواطفنا وانفعالاتنا نحو ما يحقق لنا هذه الاهداف ، الاهداف التي تجعل حياتنا – فيما نرى – انمى وأخصب واكثر سعادة ، وهي وليدة نفرتنا من كل ما يعوقنا عن اهدافنا المنشودة . وهي تمثل الاشياء التي نتجه برغباتنا واهتماماتنا نحوها. ولكل مجتمع قيمه واهتماماته التي يقدسها والتي يعمل على تثبيتها وتحقيقها ويحتقر من لا يأخذ بها او يحاربه إن أحس انه يهددها ، وما كل أنواع الحروب والتعصب الا وليدة الاختلاف الجوهري بين قيم المجتمعات . فالقيم هي التي تحدد سلوك الناس وتوجهه . ولكن هذا التعبير يحتاج الى ايضاح ، فنحن لا نشاهد القيم التي توجهنا ، وانما ما نشاهده هو التفاعل بين الناس ، ولكن على اساس القيم الموجودة في المجتمع يتلون تفاعل الناس ويفسر سلوكهم ويفهم . فالقيم في حياة المجتمع أشبه بالجاذبية التي تشد الى الارض ، فكما ان الجاذبية تفسر الانتظام في سلوك الحوادث الطبيعية ، فكذلك القيم تفسر الانتظام او عدم الانتظام في سلوك المجتمع .

***

والآن بعد ان عرفنا ما هي القيم وانها هي الجهاز الانساني الذي نجابه به الواقع ، نتساءل : هل نحن ، هل المجتمع العربي ، يواجه واقعه ؟ وبمجرد هذا السؤال يبرز امامنا ازمة ضخمة من ازمات مجتمعنا العربي ، وهي **ازمة الكيان في العالم العربي** ، اذ ان المجتمع العربي لا يواجه مشاكله موحداً بل يواجهها مفرقاً ، ولذا فهو لم يخط خطوات حاسمة نحو حل هذه المشاكل . وهذه المواجهة المفرقة الضعيفة غير الطبيعية وليدة الضغط الاستعماري الاوروبي من قديم والامريكي الاوروبي الآن . واكبر خطة نجح المستعمر في اتخاذها لاضعاف المجتمع العربي هي تفرقته وخلق دول مصطنعة وقوميات متعددة في داخله، مما فتت من القومية العربية التي كان يمكن ان تنمو . وتقف فلسطين موقفاً بارزاً حين النظر في ازمة الكيان هذه، اذ انها كانت ولا تزال من اهم العوامل الكاشفة التي تدل على ان الكيان العربي الرسمي الحكومي ليس بكيان مجتمع موحد، بل هو كيان مصطنع،فقد كانت صفعة دلتنا على خطأ اعتقادنا في سلامة الكيان العربي الحكومي الراهن ، فهي تشير الى فساد هذا اللون من التكيّن الرسمي .

ولأهمية ازمة الكيان هذه سنفرد لها مقالاً وحدها ، وحسبنا الآن ان ننتقل الى العالم العربي او المجتمع المأزوم في كيانه ، لنعرف ما هي قيمه وما مظاهر ازمة القيم فيه .

اذا اردنا ان نعرف مجموعة القيم في مجتمع ما ، فمن اللازم علينا ان ننظر الى الغرض الذي يهدف هذا المجتمع الى

تحقيقه ، وبذا يصبح هذا الغرض هو النقطة التي ترجع اليهـا مجموعة القيم في هذا المجتمع . فنظام القيم في مجتمع ما يتحدد بفكرة هذا المجتمع عن الحياة وغرضه منها ، فيصبح كل ما يخدم هذا الغرض خيراً يجب ان يسعى اليه ، وكل ما يعارضه شراً يجب ان ينهى عنه .

كانت مجموعة القيم في المجتمع العربي قيماً مناسبة للواقع التركي ، واقع الاستعباد والقيود ، وكان الهدف منها تيسير الحياة في هـذا الجو الذي يحرص على أن يبقى العبيد عبيداً والسادة سادة . فكانت قيماً لتبرير هـذا الواقع الاجتماعي ، فهي قيم سلبية تعزل الناس عن المشاركة في مجتمعهم ، قيم غير فعالة ، فليس للناس ان يهتموا بمشاكل السياسة ، وليس للنـاس ان يناقشوا مسائل حياتهم التي يعيشونها بل هم يشجعون على أن يناقشوا مسائل الحياة الأخرى حتى اصبح البحث في مشاكل العالم الآخر قيمة ضخمة يطلق على أصحابها لقب العلماء . وقد بدت ظاهرة الانعزال عن السياسة – في العصر الحديث جداً – في تلك الهيئات والطوائف والنوادي المتعددة التي تنص في برامجها على الابتعاد عن العمل السياسي ، وفي الدعوات القائلة بعدم إشراك الشعب في العمل السياسي ، وفي قصر ذلك على طـائفة خاصة منه ، وايضاً في هؤلاء الذين يدعون الى فردية العمل السياسي ويخرجون للناس على انهم مستقلون ، كأن عدم الانضواء تحت فكرة ، والتزام مبدأ معين ، شرف يتقدمون الى الناس به . وكانت الغـاية من هذه القيم كذلك ان تخدم الوضع الاقتصادي ، وتعين على ثباته واستقراره وتبرر وجوده ، فانقسام الناس الى طبقات كان شيئاً مسلماً به ، وقد استمدت هذه القيم – التي يصح ان نطلق عليها القيم التبريرية – أساس وجودها من مجموعة من الافكار الدينية ، فالفقراء يجب عليهم ان يقنعوا بنصيبهم من الحياة ، وان يعرفوا ان هذا النظام الطبقي قد وضعه وقدره المولى من قبل ، ووجود كل فرد في طبقته قد حدده الله له ، وإن عدم المسـاواة في الارض سيعوضها عدل الله في السماء .

إن مجموعة الافكار التي كنا نبرر بها وجودنا وواقعنا السيء ، افكار تستند الى اساس ديني ، فقد كنا نواجه مشاكلنا مواجهة غيبية ، غير واقعية ، ميتافيزيقية . اما الآن فقد تغير الوضع واصبحنا نؤمن بالشخصية الانسانية واحترام الفرد الانساني . فلكل مواطن ، اي مواطن ، حقوقه كانسان ، واصبحنا نرفض كل القيم والنظم التي تؤدي الى اخراج حشود الناس من المضمار الانساني ، فلم تعد هناك قمة تنتظر السادة الحاكمين ، وسفح يستقبل بين ذراعيه طوائف المستعبدين . لقد انتهى عهد الرقيق واصبحنا ننـادى بالمساواة ، ليس فقط امام الله بل هنا فوق هذه الارض وامام المجتمع . انتهى زمن المجتمع المغلق والطبقات المغلقة التي لا تسمح ابوابها المحكمة لأحد السادة ان يهبط ولا لأحد العبيد ان يرتفـع . انتهى كل ذلك واصبحنا نرنو الى المجتمع المفتوح الذي يتحرك الناس صعوداً وهبوطاً داخل طبقاته ، حتى تتقارب المستويات . ونتيجة لذلك أخذت النزعة الشعبيـة – عندنا كما في الغرب – تنتشر ، فالشعب هو القـاعدة في الحكم ، وهو الاساس في التوزيع الاقتصادي وفي الحقوق الاجتماعية . ولم تعد النظرة المثالية الدينية هي التي تمثل القيمة الكبرى لدينا في فهم الكون ، بل تغيرت نظرتنا من المجال الغيبي القدري الى المجال الفعلي العلمي .

تلك هي مجموعة القيم الجديدة التي اصبحنا نرنو اليهـا .

وسأوضح هذا بالحديث عن موقفين من المواقف التي تكشف لنا عن نظام القيم في امة من الامم او مجتمع من المجتمعات ، وهما موقفنا من الطبيعة وموقفنا من الزمن .

فأما موقفنا من الطبيعة ، فلم يعد موقف الخاضع المستكين لحكمها ؛ لم نعد ننظر الى كوارث الفيضانات والمحاصيل نظرة سلبية تكتفي بتبرير هذا بأنه قدر لا مفر منه ولا مهرب ، ويجب ان نرضى به كما نرضى بالموت ، ما دامت مشيئة الله وراء ذلك كله ، كما تعبر عن ذلك الامثال التي من قبيـل « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » ... لا ، لم يعـد موقفنا كذلك بل اصبح **موقف كفاح وتغلب** ، وأصبحت محاولة السيطرة على عناصر الطبيعة واخضاعها لمصلحتنا بانشاء الخزانات والكباري وشق الترع والانفاق وتجفيف البحيرات هدف العلم الاول . وهكذا نرى الاتجاه الاتكالي القدري المستسلم كان هو السائد ، اما الآن فهو مرفوض ، ونحـن نطمع في ان نحل مكانه اتجاهاً كفاحياً مناضلاً ، ولهذا اصبحت القيم المتعلقة بهذا الاتجاه هي المرغوب فيها والمنادى بها .

هذا هو موقفنا من الطبيعة . فأما موقفنا من الزمـن وشعورنا به ودلالة الابعاد الزمنية الثلاثة في حياتنا – فما هو؟ هل الحاضر او الماضي او المستقبل هو المهم عندنا ، واي الابعاد الزمنية الثلاثة يسود حياتنا ؟ وليس معنى هذا اننا نغفل بعدين من الزمن ونأخذ بالثالث فقط بل معناه اننا نضغط عليه ونعيش فيه ويسود حياتنا .

كان البعد الزمني الذي يسيطر علينا هو الماضي . فلم نكن نحفل بالمستقبل وكنا نعده مجهولاً غامضاً ، وقد وكلنا امره الى الله ، فلم نكن نضع الخطط والمشاريع والتصميمات ، اذ ان وضع الخطط والمشاريع من سمات الشعوب التي تحفـل بالمستقبل . لم نكن نؤمن بأن غداً سيكون احسن من اليوم ولم نكن نعمل دائماً ونغير فيما نعمل حتى يكون « اكبر وأحسن » . ولم نكن نحس بضغط الزمن علينا ومروره ، ولذا كان ، وما زال من سماتنا المواعيـد غير الدقيقة ، ولم نكن نحسب اليوم في الحقيقة اربعاً وعشرين ساعة ، بل كنا نعتبر خمسة اوقات هي مواقيت الصلاة . ومما هو ذو دلالة اننا في المجتمع العربي ، وخاصة في الريف ، مـا زلنا نعطي المواعيد بحسب مواقيت الصلاة ، فنقول مثلاً « قابلني الظهر او العصر » .

فالساعة لا تضبط حياتنا ، ونحن لا نحس بالزمن وضغطه ولا « نستخدم » الوقت بل « نمضيه » و « نخبر » عنه . اما الماضي فهو الذي يسود حياتنا فنقدس الاسلاف ، والروابط العائلية عندنا قوية ، ولا شيء جديد ، وليس في الامكان ابدع مما كان ، وكل ما يحدث فقد حدث من الماضي ، فلو قال غربي متحذلق « ان الغرب عرف الذرة » لرددنا عليه متعجبين من جهله « وان قدماء المصريين قد عرفوها من آلاف السنين او انها وردت في القرآن » !! فنحن نعيش في الماضي وان اهتممنا بالحاضر فلحظتنا فقط هي موضع اهتمامنا ، وقد كان الاهتمام بالماضي بمثابة عملية دفاع عن وجودنا ، فنحن نلجأ لمذخورنا القديم نستنجده في الدفاع عن كياننا امام التيار الغربي الساحق . ولكننا نحس الآن ان لدى الكثيرين اتجاهاً نحو المستقبل ورغبة في « استعمال » الوقت لا مجرد « تمضيته » .

ـ اننا في صراع ، اننا في ازمة !

***

هذا التعارض الاساسي بين القيم التقليدية الآسنة التي لم تعد مناسبة للوضع الجديد ، وبين القيم الجديدة ، هذا التعارض خلق ازمتين رئيسيتين ، تبع كل ازمة منهما عدد من المشاكل والازمات الجانبية . اما الازمة الأولى فهي ازمة تتعلق بتلقي القيم الجديدة واخذها ، واما الازمة الثانية ، فهي لماذا فشلت قيمنا التقليدية ؟ والآن نتحدث عن علة فشل قيمنا التقليدية هذه . ويمكن ان نرد ازمة القيم عندنا وما تبع هذه الأزمات من مشاكل الى سببين متصلين :

اما السبب الاول ، فقد ذكرنا من قبل ان اساس القيم في مجتمع ما يمكن التعرف عليه بمعرفة الهدف الاساسي الذي يسعى هذا المجتمع الى تحقيقه ، فاذا عرفنا اننا لم نعد نرضى عن الوضع الاستعبادي القديم ، كان نتيجة ذلك اننا اصبحنا نعزف عن الايمان بالقيم وقواعد السلوك التقليدية الموروثة . غير انه لم يكن من اليسير التخلي عنها ، لان هذه القيم كانت تؤلف جزءاً من كياننا ، وكانت العامل الاكبر الذي يوحد بين افراد مجتمعنا ، فكانت جزءاً من ذاتنا الاجتماعية ، وكانت تؤلف وحدتنا السيكولوجية ووجودنا النفسي . كانت تكوّن الأنا الاعلى لدى مجتمعنا القديم ؛ كانت الذات المثالية التي ينشدها مجتمعنا آنئذ . واذن ، فليس بيسير علينا ان نخلعها عنا كما نخلع ثوباً بالياً لانه رثّ وتمزق ولم يعد يستر وجودنا ، فهذه القيم لم نعد نرضى ان تكوّن « ذاتنا المثالية » المنشودة ، وبالتالي لم تصبح اليوم قيماً فعالة في حياتنا ، فلم نعد نرضى بالقيم التي تقول بالزهد في الحياة والقناعة والاستسلام وان طاعة الحاكم واجبة وضربة شرف .

لقد فقدت القيم التقليدية في مجتمعنا معناها ودفة التوجيه في حياتنا لهذا الصراع ، وان كان الكثير منها لم ينبذ بعد ، الا انها على اي حال لم تعد قيما فعّالة في حياتنا ، محركة لنا ، ملونة لسلوكنا ، بل اصبحت قيما شكلية ، نأخذ بها حتى يبدو كياننا موحداً في الظاهر ، موحداً من الناحية الشكلية ، بينما هو كالبناء المنخوب اللبنات ، او كالبيت المتداعي الذي نقيمه بجهد حتى ننتقل الى البيت الجديد . ونستطيع ان نمثل على ذلك بالدين . فنحن نأخذ بالدين ونؤمن به ، وندافع عنه ، ونجادل في انه اصلح شيء لنا ، ولكننا لا نعمل به ، وهذا هو معنى قولنا ان اكثر القيم التقليدية فقدت معناها وروحها ودفة التوجيه في حياتنا .

ان القيم القديمة لم تعد تتناسب وأهدافنا الجديدة في الحياة . بل انها لم تتطور حتى تواجه حاجاتنا في المجتمع الجديد ، هذا المجتمع المتغير في كل وقت في جميع نواحيه الطبيعية والسياسية والاقتصادية . ولم يكن في مقدور النظم القديمة والقيم التي ارتبطت بها ان تفي بتحقيق المسلمات الانسانية الغربية ، تلك المسلمات المتمثلة في الحرية ، ، وفي التفكير الحر غير المقيد بالنظم المغلقة الجامدة ، وفي المساواة ، والشكل الديمقراطي من الحكم لا الاستبدادي ، والاشتراكي لا الاقطاعي ولا الرأسمالي في الانتاج والتوزيع ، ولذا اخذت نظمنا الاجتماعية والقيم المرتبطة بها في التغير مثل النظام العائلي والسياسي واللغوي والفني ، فأصبح الزواج واحدياً في معظمه ، والاقطاع بسبيل الزوال ، والقاعدة في الحكم ستكون الدستور النابع من الشعب ، واختفى السجع والمحسنات البديعية من الكتابة ، وظهرت أشكال فنية جديدة كالقصة والمسرحية وتغير البناء الشعري .. وقد تغيرت هذه النظم جميعاً لانها لم تعد تشبع مطامح الناس وآمالهم ، أي لم تعد بكافية للتعبير عن قيمهم الجديدة .

***

وقد تمثلت هذه الازمة للقيم القديمة وفشلها الحتمي في تلك النتيجة الدراماتيكية العنيفة التي أصابت المجتمع في صميم كيانه ، فلم نعد نؤمن بمجتمعنا حقيقة ، ولم يعد يجمعنا غرض

مشترك على صعيد واحد ، وتجلت هذه الازمة في شكل عدم ايمان بالمجتمع العربي وفقدان الولاء الاجتماعي والاخلاص نحوه .

وعن هذه الازمة ، ازمة الولاء نحو المجتمع العربي ، نتجت عدة مشاكل :

اولها : اننا اصبحنا نرفض الماضي الآسن العطن ، وقد تصل هذه الحالة ، حالة الرفض وعدم الولاء نحو المجتمع العربي ، الى الاحساس بعدم المسئولية نحو المجتمع والتخلي عنه ، عن المجتمع العربي ، وقد تمثل ذلك الهرب من قدرنا الاجتماعي في صورتين : هرب ايجابي وهرب سلبي .

أما الهرب السلبي فهو مشاهد لدى جموع الشعب العربي ، الجموع التي تترك كل شيء يعمل لها ، محسة بعدم جدوى العمل في مجتمعها ، لانها يائسة من ان يوجه هذا العمل لمصلحتها . فلا تنشط بالاشتراك الفعلي في التوجيه السياسي . وهكذا نقدر ان نفسر الموقف السلبي لدى الجمهور العربي تجاه قضاياه .

واما الهرب الايجابي فهو رفض بعض الافراد ان يوحدوا انفسهم بمجتمعهم ، فهم يشعرون بأنه ليس هناك امامهم غاية اجتماعية يجب عليهم ان يكرسوا حياتهم في سبيلها . ومن هنا يستبيحون لانفسهم حرية العمل الفردي . العمل لمنفعتهم ومنفعة زمرهم ، فهم يسلكون كما لو لم يكن لهم مجتمع يجب ان يعملوا لاجله . ويتمثل هربهم الايجابي هذا في عملهم الفردي ، اذ ما هو الدافع الى العمل الجماعي العربي ؟ وكثيراً ماتزداد ايجابيتهم الفردية هذه ، فينهمكون في توجيه النظم الاجتماعية سياسية واقتصادية لخدمة مصالحهم الشخصية . **وفي هذا تفسير وتعليل للاتجاهات الاقطاعية والرأسمالية وما يواكبها من تفش للوساطات والرشاوى وللصورية الملموسة في تطبيق النظم الديمقراطية ، وعدم القيام باصلاحات جوهرية متكاملة منظمة ، لانهم غارقون في اصلاحات شكلية مجزأة موقوتة .**

وليست هذه هي المشكلة الوحيدة لهؤلاء الافراد الهاربين ، فانهم قد ينفصلون فعلاً عن قدرهم العربي ، ويرتبطون بمجتمع آخر ، ويضعون انفسهم عن طواعية حرة في خدمة المجتمع الآخر حتى يلبوا ما عندهم من نقص ، ولو ادى ذلك الى ان يتسببوا لمجتمعهم العربي بأفدح الاخطار . وهذا النوع من الاشخاص يؤلف لونا من الشخصيات هي « الشخصيات الهامشية » ويتمثل هذا اللون عندنا في هؤلاء الاشخاص العرب الذين ينتمون اصلاً الى الحضارة العربية ، ويلتصقون ثقافة وشكلاً بالحضارة الغربية . فهم يعيشون على هامش الحضارتين ولا يشغلون اياً من مركز الحضارتين ، فلا يُقبلون في واحدة منهما ، فهم عرب حقيقة الا انهم غربيون حضارة وثقافة .

ولسنا نعني « بالشخصية الهامشية » كل من تثقف بالثقافة الغربية ، بل كل من انفصل عن مجتمعه العربي وخدع نفسه بالتغرب عن بيئته . فهو يعاني من مركب النقص ازاء الغربيين ومن الشخصية المزدوجة في ذات الوقت .

وفي هذا الذي نقوله عن « الشخصية الهامشية » تعليل لما نشأ من نزعات الولاء والاخلاص لدى بعض الشخصيات عندنا نحو مجتمعات اجنبية ، وتنكرهم لمجتمعهم العربي ، فبيننا من يخلص للانجليز في مصر والعراق ، وللفرنسيين في سوريا ولبنان وللايطاليين في ليبيا ، وللامريكيين اخيراً . واخطر الشخصيات الهامشية حديثاً هم هؤلاء الذين يرنون دائماً الى مكة الجديدة ، الى موسكو ، يستلهمونها لوناً من الحياة هو اكمل الالوان فيما يعتقدون . وتكمن هذه الخطورة في

صدر حديثاً عن دار بيروت للطباعة والنشر

الجلاء

وثائق خطيرة تنشر لاول مرة

تكشف النقاب عن اسرار جلاء القوات الاجنبية عن لبنان وسوريا عام ١٩٤٦

بقلم

منير تقي الدين

المدير العام لوزارة الدفاع الوطني

***

قيد الطبع

المسرحية

في الأدب العربي الحديث

دراسة شاملة لتاريخ المسرح العربي وتطور الادب المسرحي

تأليف : الدكتور محمد يوسف نجم

الحماس العقيدي الذي يأخذون به هذه الافكار على انها المخلص الجديد، مما يجعلهم يرفضون كل شيء غيرها بعنف ويتلقونها جميعاً بلا وعي ولا استبصار بواقعنا، وهذه خطورة الحماس العقيدي دائماً .

فهامشية هؤلاء واولئك ومركب النقص عندهم تدفعهم الى الانتماء الى مجتمع يعتقدون انه راق وتقدمي ، متنكرين لمجتمعهم الاصيل .

***

وقد كان من اهم النتائج لشيوع هذه الروح ، روح عدم الولاء للمجتمع وفقدان الحس الجماعي **سيادة الروح الفردية في مجتمعنا العربي** . ولعل الاتجاهات الفردية في الجانب الاقتصادي تتمثل في النزوع نحو الاقطاع والرأسمالية واقتصار المصالح على خدمة افراد او فئة من الاقارب ، وما يستتبع ذلك من الوان المحسوبية والرشوة ، وتتمثل في الجانب السياسي في النزوع الى الحكم الفردي الاستبدادي . ولكن هناك مظهراً آخر للفردية تجلى في الادب والفن عندنا ، فلم تكن القصيدة تعبيراً عن احساس الامة دائماً ، وانما كانت في اغلب احوالها تعبيراً عن احساس فردي لانسان لا يحس بواقع وطنه ولا يشعر بحاجة هذا الوطن الى الخبز بقدر ما يشعر هو بحاجته الى نظرة من امرأة تشعره بوجوده التافه المريض .. ولم تكن المقالة الا خواطر انعزالية لا تلمس حياة الناس، يعالج فيها الكاتب قضايا ميتة لا تعيش الا في رأسه ، فماذا يهمنا نحن من قدامة بن جعفر وسيبويه وابن خلكان والباطنية وغيرهم اذا لم يوصل بينها وبين واقعنا . حتى اغانينا كانت اغاني مائعة فردية لا تحس فيها شعور الامة نحو شيء مشترك ، وانما تتعلق بما هو غريب عنا ، ومع ذلك يحاول اصحابها اذاعتها بيننا . ومن هنا نستطيع بسهولة ان نعلل « ازمة الكتاب العربي »، المكتوب باللغة العربية ، وليس الكتاب العربي الذي يمكن ان يضاف الينا نحن العرب . وليس معنى هذا ان الكتب التي تعبر في صدق عن قضايانا ومشاكلنا اي عن «النا» العربي الصاعد لا تعاني هي الاخرى ازمة ، بل هي ايضاً تعاني ازمة تتمثل في الضغط السياسي الداخلي والاستعماري معاً ، الذي يحارب جاهداً الروح العربية الصاعدة حتى لا تظهر وتنبثق .

***

هذه هي الازمة الاولى بشاكلها الجانبية التي تتفرع عنها؛ واما الازمة الثانية فناجمة عن الجانب المقابل في مجتمعنا العربي المنشود .

فالمجتمع العربي قد شرع في رفض قيمه الآسنة التي لم تعد تصلح له ، واخذ يستبدل بها قيماً انسانية جديدة ، فاصبح المجال مجال صراع وتغير ، وحلول قيم جديدة محل قيم قديمة . وارتبط بهذا الوضع عدة مشاكل، ولن يستقر الوضع في البلاد العربية حتى تحل .

فقد أدهشنا تقدم الغرب الآلي في جوانب المواصلات والطب والآلات الحربية وجميع مظاهر التقدم التكنولوجي، فأعجبنا بنظمه، وارتبطت آليته ونزعاته العملية العلمية لدينا بمجموع من القيم . ولما كنا ضعافاً ، شعرنا امام هذه القيم بالاجلال والتقديس بل تعصب فريق منا لها واندفع ينادي بعدم الارتباط بحياتنا الماضية وقيمنا الموروثة . وبجانب هذا، تعصب آخرون لقيمنا الماضية التقليدية ،فأخذوا يدعون لنبذ الحياة الغربية واحتقارها واخذوا ينادون بمحاولة الرجوع الى رصيدنا المذخور نلجأ اليه للدفاع عن كياننا ، وجعلوا يتفاخرون بماضينا الوضاء ، ويقللون من شأن الحضارة والتقدم الغربي ، وزعموا بان ليس لدى الغربيين شيء لم نعرفه ، فلو زعم مفتون بالحضارة الغربية ان الغرب عرف الذرة مثلاً ، لقالوا انها في القرآن، ولو قال عندهم نيوتن لقالوا عندنا الحسن بن الهيثم ،ولو قال عندهم النظام النيابي والاشتراكية لادعينا ان اجدادنا عرفوهما ورحنا نتحدث عن الشورى وعن ابي ذر الغفاري !

ومثل هذا الاتجاه يدل في الحقيقة على الانسحاق امام تيار الغرب الحضاري .

والازمة الناجمة عن هذا الصراع بين القوى الراجعة الى الخلف والزاحفة المتطلعة الى الامام ، تتمثل في اخذنا السريع المبتسر للقيم الجديدة اخذاً سطحياً قد يتعارض مع روح مجتمعنا وامكانياته وقابلياته ، لانها لم تنبع منه ، من داخل المجتمع ، حيث لم نحفل بمراعاة مدى اتفاقها وصلاحيتها لمجتمعنا ذي القيم المغايرة . وهنا تبرز تلك الازمة المتمثلة في هذا الاضطراب المشاهد في عجزنا عن تطبيق النظم الجديدة، لاننا لم نفهمها بعمق حيث اننا نتلقاها تلقياً ظاهرياً، فنحن حتى نرضي تطلعنا ، تراانا نسرع في اخذ مظاهر النظم الغربية في الحكم ..

فالديمقراطية عندنا شكل لا روح ، والحياة الاجتماعية غربية مظهراً ، فنحن مثلاً نحسب ان تحرر المرأة يكمن في الازياء والسلوك الخارجي، وفي الرقص والسكر وإباحة العري.. وقد يكون ذلك في مجمله حقاً مظهراً من مظاهر التحرر، ولكنه على كل حال ، ليس تحررها الحقيقي من عبوديتها .

اننا نأخذ بالمظاهر الغربية، دون ان تتأصل فينا الروح التي خلقتها : اذ لم يتمكن بعد المنهج العلمي في حياتنا ، ولم يصبح الشعب حقيقة هو القاعدة في الحكم .

وهذه الازمة هي ازمة اخذ وتلقٍ تقليدي غير واع ، وتتمثل في حديث كتابنا عن ذاتيتنا وعن تراثنا ومجدنا وشخصيتنا العربية التي يجب الا تضيع، ويجب الا تكون نسخة اخرى عن الغرب ، اذ لنا كياننا ولنا تاريخنا ومصيرنا .

وهذه الازمة التي تمثل مرحلة التوتر المحموم في مسار القيم عندنا ، لا يمكن ان تحل ، الا على اساس من التشخيص المتكامل لمظاهر الازمة في مجتمعنا العربي. ففشلنا في نظمنا السياسية والاقتصادية والتعليمية ، وعدم قدرتنا على الابداع في الحقل العلمي ، وشيوع المذاهب والدعوات الغربية التي ليس لها صدى حقيقي عميق في مجتمعنا .. كل هذا مظهر من مظاهر هذه الازمة ، واشارة الى الاتجاهات التي سوف يكون لها اثر في حياة المجتمع العربي .

فستستمر الاتجاهات الجديدة في عالمنا العربي متصارعة حتى تتضح الغايات التي نريد، وبالتالي القيم التي نستقر على الاخذ بها . ونستطيع القول بان هذه الازمة تتركز في الاجابة الواعية عن هذا السؤال : ماذا نريد ؟.. ما هو غرضنا وهدفنا في الحياة ؟.

ولذا فيمكن التنبؤ بأن الدعوات المتعارضة الكثيرة ستجتاح عالمنا العربي هذه الحقبة ، وسوف تفلح الاتجاهات الفعالة في خلق نظام من القيم يساعد على تحقيق هذه الاتجاهات والغايات ، **فأزمة المجتمع العربي في هذا الطور ، أزمة قيم لم تتحدد ، وغاية وهدف لم يتضحا**... أي ان الصفات والسمات التي نريدها ونرغب في وجودها، لم تتحدد بعد بجلاء ووضوح، لان هذه الاتجاهات الحديثة المتصارعة لم تعمق بعد في كياننا ، أو تتخذ لها اصولاً وجذوراً في وجودنا .

وفي هذا تعليل لمشكلات الاحزاب وتعددها وكثرة التكتلات التي لا معنى لها في المجتمع العربي . فمعظم هذه الاحزاب ، واحدة الاهداف والغايات ، والعلة في انها تقوم على الزعامات الاستهلاكية ، اي الزعامات التي تكتسب صفة الشعبية في استهلاكها العملة السهلة ، أعني الالفاظ الطنانة والوعود الفضفاضة الخلابة غير المحددة ، فهي تقوم على الارضاء الكاذب للقيم وإشباع الطموح الى القيم الجديدة إشباعاً متوهماً ومشوهاً . والذي مكّن لمثل هذه الزعامات من الظهور هو عدم وضوح ما نريد وعدم الاستقرار في المجتمع العربي على ما ينشد من اهداف . وحسبك دليلاً على ذلك هو انه حين كان الهدف واحداً في معظم البلاد العربية، وهو طرد الاستعمار، لم يكن في كل قطر منها - وخاصة مصر - إلا حزب واحد قوي يلتف الشعب حوله . ولكن الذي حدث ان اصيب الشعب بالخيبة من هذه الزعامات، لانها كانت زعامات فردية إقطاعية ورأسمالية تتبنى القضية لتحافظ على مصلحتها هي ، لا على مصلحة الشعب ، وقد أدت خيبة الامل هذه الى فقدان الثقة بالحكام وإلى الانكماش الفردي « يا عمي سيبك ما أسخم من ستي إلا سيدي ! » .

***

وقد كانت التغيرات التي مرت بالعالم العربي تغيرات غير تطورية ، لأنها لو كانت تطورية، لما كانت تكفي في صعيد السباق والتقدم ، **ولذا فمن الجلي ان تكون هذه التغيرات انقلابية وثورية** ، ومن هنا نستطيع ان نعلل هذه الثورات التي سادت العالم العربي في العشرين السنة الماضية : في سوريا ولبنان ومصر ... اذ ان التطور الطبيعي المنتظم لا يكفي لاشباع وتلبية الاماني والاهداف والقيم الجديدة ، فكان من الضروري حين يفشل التطور ، ان تظهر الثورة التي تحاول ان تحقق هذه القيم الجديدة . وما دامت الاصلاحات التي تقدمها هذه الانتفاضات والارتعاشات المفاجئة ، ليست كافية لاشباع حاجاتنا الى القيم والحياة الجديدة ، فيمكن ان تستمر هذه الثورات في العالم العربي مدة أكثر ، وسوف نحس بالحاجة الى روح ثورية ، أي أن نعتقد في اهداف وقيم نتحمس لها ونؤمن بها .

ولذا فيمكن التنبؤ كذلك بأن تظهر في هذه التربة

حتى النفس الأخير

[الى الشهيد ابرهيم ابو دية، والى كل واحد من الذين استشهدوا فيمعركة رامات راحيل قرب القدس ، ربيع ١٩٤٨ .]

من انت ؟
بل من كنت ؟
لولا النور في عينيك والحقد الدفين
ورعشة الوتر الحزين
اتثور ؟
بل أتظل مذبحةُ الضمير
تغلي بقلبك كل هاتيك السنين
فتصيح بالشلو الحطيم
« موتوا على الطلل القديم
ضاعت مرابعنا وضاع المجد ، والحلم العظيم
لم يبق منا غير ايمان عنيد
اقوى من الطغيان والجلاد .. من سجن الحديد .. »
ولا جديد
لا شيء تحت الشمس غير دمائنا عبر الحدود
وصدى لأنّات العبيد
على السياط
ودبيب اقدام الغزاة
بالأمس كانوا يحفرون قبورنا خلف السدود
وغداً سنحفر قبرهم .. شيءٌ جديد ؟
لا شيء .. غير السجن والتشريد والدم والقيود
وهتاف شعب .. « لن نحيد » !

***

من كنت ؟!
غير النار ، والغصات في الصدر الحنون
وهتافك المشبوب في وجه العراه
« يا شعب ..
فرعون انتهى .. نيرون مات
لم يبق الا مجد ابناء الحياه » ؟!
ايطال نبعَك رعبُهم ؟
فتخاف ترديد الحياه
مع الربيع .. مع الزهور ؟!
لولا الشعور
لكنت قوقعة تدور
على القبور !!

***

من كنت ؟
بل من انت ؟
بل عبثاً تكون
لولا ارتعاشات الحنين .

سمير صنبر

العربية ، وقد ظهرت فعلًا ،بذور لها نزعات نازية تقوم على الايمان المطلق بفكرة ما ، والتحمس لها والتركز حولها ، والاحساس بأن الانتماء اليها شيء يستحق الفخر ، فيظهر زعماء من لون جديد يثق بهم المجتمع اليائس من الاصلاح، الراغب في التغيير ، فيسلم الشعب لهم القياد ، وينتج لون من الحكم الفردي وتظهر اسطورة العادل المستبد ، والمخلص الجديد .

***

والآن ... أخيراً، ستبقى هذه الاتجاهات تتصارع وقيمنا التقليدية ، وسوف يستمر هـــذا الصراع حتى تتأصل بعض الاتجاهات ، وقد تأصل بعضها فعلًا ، وحين تتأصل هذه القيم والاتجاهات، لن تصبح هي ذاتها قيماً مستوردة،لانها ستصبح ملونة ومشبعة بروحنا العربية وتراثنا... وان ذلك سيكون بشير فجر يطل على العالم العربي وعلى الانسانية. انه سيكون دفق الاصباح ، مع إشراقة الشمس من شرقنا العربي.

القاهرة — **عبد الجليل حسن**

« جماعة الأبحاث النفسية المقارنة »